

الايديولوجيات و"الأنا" الغت الرموز والقادة في الثورة السورية

ابراهيم ابراهيم

في تاريخ الأمم والشعوب رجال عظماء يظهرون في لحظات الحسم التاريخي التي ترتبط بمصير شعوبها وأممها، رجال تتفاعل معها كل عناصر الزمكان يخلقون منطق اللحظة التي ينتمون إليها بنوعهم الفكري ووعيهم المعرفي لتتقلب معادلة القوة الكونية من مسير إلى مسير بفعل قوة الفكر والمعرفة لديهم، يتبعهم التاريخ بعناصره ويحسمون المعركة في لحظة الصحوه من العهود السوداء الظالمة ليبتكرو فلسفة اللحظة الجديدة التي صنعوها ويحسمون معركتهم الابدية ضد ظلم الطبيعة أولاً وضد ظلم البشر للبشر ثانياً وتلغي عناصر الكبح الحضاري والتقدم البشري.

هذا هو منطق الحراك التاريخي وهذه هي ديمومة المجموعات البشرية على خلاف أصنافها وانتماءاتها الزمانية والمكانية والاجتماعي , من زرادشت إلى جلجامش (Gilgamesh) وعيسى (ع) ومحمد (ص) ومن بعدهم سقراط وافلاطون إلى بسمارك وماركس وغيفارا, هتلر, موسو ليني سلطان باشا الاطرش و ابراهيم هنانو وعمر المختار وغورباتشوف حديثاً.

هؤلاء من غيروا المسار التاريخي للفكر الانساني وهم من خططوا وقادوا الثورات في الفكر وضد قوى الطغيان والاستبداد وأصبحوا رموزاً لشعوبهم وللعالم سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر وأصبحوا بعظمتهم الجزء الاساسي في التأثير وبقوة في الفعل الجماهيري ووعيه الساعي لعملية التغيير لتكتمل معادلة تحرير الانسان وبناء الحضارة وتكافئ طرفيها الاول وهي تلك الرموز الرجالات العظيمة والثاني الشعب تلك القوة والمحرك الاساسي في عملية الحراك ورسم ملامح المرحلة والتي ينتمون إليها والقادمة. في سوريا وحدها وعلى عكس تاريخها القديم والحديث والمليء بالعظماء والرموز , لم تكتمل معادلة التغيير الثورية المنشودة , فالعظيم و الرمز الموجود هو الشعب, المحرك الاساسي لهذه العملية التاريخية الجارية في سوريا وهو الوحيد القادر للسيطرة على عناصر اللحظة وعناصر المكان لكن.... المحرك العظيم هذا ينقصه المقود والوقود أي النخبة والقادة الذين سيقودون هذا المحرك في هذه الثورة, ينقص الثورة رمز الوطني كبير, رمز شامل يجتمع حوله الشعب السوري بأكمله, ككل الثورات العربية التي اجتمعت حول قائد أو على الأقل رمز لها, ففي تونس اجتمع الشعب على الشهيد محمد بوعزيزي كرمز لبدء اشتعال الثورة وفي مصر كان وائل ابو غنيم وفي ليبيا كان مصطفى عبدالجليل وفي اليمن ظهرت توكل كرمان الحائزة على جائزة نوبل للسلام.

إلا في سورية لم يظهر سوى أسماء الشهداء العظماء القادمين من قلب الجرح السوري, لم يظهر في سوريا سوى رمز واحد هو الشعب في بابا عمر و الرستن و ادلب و القامشلي و حماه و ادلب و درعا لكن.... وهنا سأطلب المعذرة من هذا الشعب العظيم بتضحيته, و سأطلب السماح من مشعل و القاشوش و ساروت و فدوى سليمان و... و... و... وما أكثرهم, لأدخل و بكل تواضع في صميم العملية التي سرتم بها ويسيروا بها الشعب السوري من بعدكم ليس لأهدم ولا لأجرح كما سيقولها البعض المتسلق والجاهل بل لأرمم وأبني وأظهر , وكمواطن سوري مناطق الخلل في ثورتنا التي يحاول البعض من الطارئيين عليها خربشتها دائماً بعقليته القروية والعشائرية لا بل الدينية المغلقة و ايديولوجيه المغامرة.

إن الشعب كما ذكرنا سابقاً هو وقود التاريخ وهو الأساس في الحراك التاريخي ولكن.... هل صحيح ما تتبناه المعارضة السورية على الأقل واقعياً وعلمياً وسياسياً بأن (الشعب أو الجماهير) هو الذي يجب أن يقود ويرسم خارطة الثورة ويخطط للتعامل مع الظروف التي تمر بها الثورة...؟؟ وهل هذا هو المنطق العلمي و السياسي الذي سيقود إلى انتصار ثورتنا...؟؟ أم أنها شعارات وفلسفات تبرر بها عدم إدراكها الوعي السياسي المطلوب للتعامل مع الحدث.

إن قاعدة الانطلاق لدى قوى المعارضة السورية هي الشعب هذا منطق تاريخي ولكن... يقابله منطق آخر وهو أنه لا يمكن للشعب أن يقود المعارضة أو الثورة أقصد هنا اساليب ووسائل الحراك الثوري ووضع قراءات سياسية علمية للظروف التي تمر بها ورسم رؤى واضحة وخطط عمل للثورة وما يليها من مستقبل سواء كان المستقبل اخفاقاً أو نجاحاً وعدم الإمكانية هذه محصورة في أسباب كثيرة وكثيرة ومن أهمها: أن الشعوب عادة وخاصة الشعب السوري يضم بين طياته شرائح اجتماعية و ثقافية وعلمية وجاهلة " أمية " وبسطاء من قرويين وبائعين متجولين والعمال والفلاحين والنساء والأطفال ذات اختلاف واضح في المنبت الثقافي والمعرفي وهذا ما يخلق مجموعة من التناقضات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي عادة ما تقف حائلاً بين التوحيد في وجهات النظر في القضايا التي تهم هذا الشعب وهذه الحالات العادية, فكيف بحالة حراك سياسي ثوري يصعب السيطرة عليه ووضع سياسات للتعامل معه...؟؟؟ أضيف إلى ذلك أن ثقافة ووعي الشعب المختلف عمودياً لا يستطيع وخاصة في عالم كعالمنا اليوم المتشابك والمعقد بمفاهيمه ومصالحه وقواه التكنولوجية وملعب السياسة الكبير والتي تحتاج للاعبين كبار وعظماء ليمتلك زمام المبادرة والامور, إن الديمقراطية والحرية والمدنية بمفهومها السياسي والعلمي والاخلاقي ليست منوطة بكم من الشهداء يسقط أو سيسقط, وبحجم الدمار الذي سيلحق بالوطن, وليس أن فقط أن تطلق بأعلى صوتك شعارات طنانة, إن العملية الثورية والحراك الثوري المطالب بالمدنى الأساسية لحقوق الانسان من الديمقراطية والحرية والتنمية تتطلب عقول عظيمة ورموز وطنية بمستوى العصر والوطن يؤسس مفاهيم ورسائل فكرية و سياسية , يُنتجها من قراءاته الصحيحة والعلمية عن اللحظة الاجتماعية التي ينتمي إليها وليس الظهور فقط على الشاشات الملونة والفنادق الضخمة وإطلاق فلسفات إنشائية فارغة وحلقات سياسية التي لا تعبر بشكل صحيح عن الواقع , ورغم هذه الحقيقة العلمية فإن أكثر قيادات المعارضة السورية مازالت دون المستوى المطلوب و مازالت تجتر الفلسفة نفسها , فلسفة الشعارات والوطنيات. وفي ذلك شقان من الخطورة على الثورة السورية:

أولاً : إذا كانت ما تسمي نفسها قيادة الثورة تعلم هذه الحقيقة أي حقيقة أن الرجال أو النخبة هي التي تخطط و تقرأ و تصنع التاريخ و الشعب داعم و أن ضعف خطته و حججه في إقناع الشعب بذلك يجعله دائماً يبرر أن الشعب هو الذي يقرر و نحن ننفذ و بذلك تكون العملية الثورية في خطر لأن من يقودها هو الشعب هو البساطة و اللاوعي و المتناقضات و عدم و جود خبرة و تجربة سياسية لمن يقود الثورة و خاصة إذا كانت هذه الثورة ضد نظام مجرم معقد مجنون.

أما الخطر الثاني: و هو أن هؤلاء أو من يسمون أنفسهم قيادة يضحكون على أنفسهم أولاً وعلى الشعب ثانياً وعلى التاريخ والوطن ثالثاً ويجعلون من الشعب حصان طروادة و دماء الشهداء علاقة لجهلهم مبررين أمراضهم النفسية و قلة إدراكهم بالمفاهيم الحديثة لقياد العملية الاجتماعية و السياسية.

والحقيقة أن ما يحدث في سوريا ثورة ضد نظام ديكتاتوري مستبد و بكل المعايير والمقاييس بمعنى آخر ثورة سياسية اجتماعية اقتصادية بكل ما تحمل من معنى وهذا ما يحتم ظهور رجال وقادة اليوم قبل الغد

رجال ورموز وطنية قادرة على استيعاب الحالة وعناصرها, مؤثراً, تلتهم الجماهير حوله وحول فكره وعيه مدرك لحقيقة اللحظة التي يعيشها تفادياً لظواهر سلبية أخرى تسيء للثورة ومجرياتها وعلى مستقبلها, إن ثورة تطالب بالحرية والديمقراطية تعيش في خطر أزمة يفتعلها البعض وهي بالفعل ستكون كذلك إن لم نستطع التعامل معهما بعقلانية وواقعية سياسية, علينا أن ندرك أن المفاهيم تغيرت وأن المعادلات السياسية التي كانت سائدة في فترات سابقة تغيرت وأن العالم يتابع عن كثب ثورتنا وأن لعبة القوانين المعادلات والسياسات والمصالح التي تفودها وتنتجها القوى العظمى من اقليمية ودولية وعلى ضوء ما ينسجم مع مصالحها وايدولوجيتها هي التي ستحدد وبنسبة كبيرة انتصارنا أو إخفاقنا. علينا أن نعي المسار الحقيقي للعملية الثورية الجارية في سوريا والتي تملك خصوصية لم تملكها الثورات الاخرى وأن نكون على قدر المسؤولية الاخلاقية على الاقل تجاه اولاد وامهات الشهداء بان نتغلب على العقليات غير القادرة على التحرر من أطرها المغلقة التي صنعت في المعامل المهترئة.